قالت العرب

الزمن الأحمر يا ولدي / وعجاف البقر الأبيض يا بن أبي يأكل كل
حقول الأرض / فكل الكون على عزف الزمن الأحمر يحتضر / يابن أبي
هذا غيض من فيض / سيفنى الناس / ويفنى الوسواس الخناس ولكن
مافي الجبة أحد

المشهد

العدد 327 - السنة الحادية عشرة- الأحد 15 يناير 2023م - 22 جمادى الآخر 1444هـ

رواد التنوير فى الفكر المصرى الحديث (15):

عسكريون ومهندسون تقدميون فى مواجهة رجعية الخديوى عباس

مصطفى بهجت بطل إتمام القناطر الخيرية المشروع الهندسى الأضخم فى العالم وقتها مع محمد مظهر

محمد مظهر باشا

رفاعة الطهطاوى

الخديوى عباس الأول

فى كتابه «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» يكتب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١- ١٨٧٣م) تحت عنوان «فى تعريف المنافع العمومية بالمعنى العرفى الصناعي» قائلا: «أعلم أن ما عبرنا عنه بالمنافع العمومية يقال له فى اللغة الفرنسية «أندوستريا»، يعنى التقدم فى البراعة والمهارة، ويعرف بأنه: فن به يستولى الإنسان على المادة الأولية التى خلقها الله تعالى لأجله، مما لا يمكن أن ينتفع بها على صورتها الأولية، فيجهزها بهيئات جديدة يستدعيها الانتفاع وتدعو إليها الحاجة، كتشغيل (مشغولات) الصوف والقطن للباس الإنسان، وكبيعهما. فهذا المعنى يقابل «الأندوستريا»، وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة، فيقال: الملك الفلانى يشوق الزراعة و«الأندوستريا»، أى التجارة والصناعة، يعنى يسعى فى تقديم المنافع العمومية».

لم يكن اهتمام الطهطاوى إلى هذا الحد بالتدقيق فى اصطلاح «الأندوستريا» أو التصنيع نابعا من إحاطته بأهمية الصناعة فى زيادة دخل الوطن وتنمية ثرواته فحسب، بل إنه كان ينظر إلى التقنية (التكنولوجيا) الصناعية باعتبارها سبيل الأمم إلى إدراك التقدم (التمدن). وهو ما يفيض به كتابه - معنى ومصطلحا - عندما يتناول بالتحليل مسائل العمل الحديث ورأس المال، ودور الدولة فى الإنتاج، والعلاقة بين القطاع الانتاجى والخدمي.

كان للطهطاوى سبق الكتابة فى قيمة العمل الانتاجى بمعناه الحديث لأول مرة فى العربية فى تعريفه للعمل «الذى هو القوة الأولية»، وفى تقسيمه لقوة العمل: «تقسم أرباب الإدارات وتدابير العمل إلى قسمين لا ثالث لهما: منتج للمال وغير منتج له، لأن العمل لا يخلو من شيئين: إما أن تزيد قيمة مورده بالربح فهو المنتج، وإما ألا تنشأ عنه ثروة تربيح مالى تنسب إليه فهو غير المنتج، وهذا يرجع إلى الاستغلال وعدمه بالعمل، وكما يقال للعمل منتج أوغير منتج يقال للعامل كذلك، فالعمال صنفان: مكتسبة ومرتزقة»

يعنى ذلك بتعبيرنا اليوم تفرقة بين العامل المنتج أو التقنى الصناعى أو الزراعي، والعامل الخدمى والإداري، ويضيف الطهطاوى للتعريف بالعامل المنتج قوله: «إن العامل الصناعى أو الزراعى تزيد بعمله قيمة البضائع المصنوعة التى هى مورد عمله، فله مدخل عظيم فى تربيح صاحب الملك، فهذا العامل منتج للكسب والاستغلال بخلاف عمل الخادم عند السيد، فإنه ليس فيه فى حد ذاته للسيد ربح ولا مكسب مالي».

الطهطاوى رائدا اشتراكيا

المتأمل فى عبارات الطهطاوى السابقة يتلمس فيها - بالطبع - أثر الاصطلاح النظرى الاقتصادى الأوروبى الحديث بمعايير زمنه، ولا يعد هذا الأمر غريبا بالنسبة لدارس متبحر فى معارف القرن التاسع عشر الأوروبية كالطهطاوي. لكن الباحثين يذهبون لأبعد من ذلك فى استقصاء تأثر الطهطاوى بمقولات الاقتصاد الحديث فى زمنه، إذ يرصدون فى كتاباته آثار النظريات الاشتراكية التى طرحها سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٥٢م).

سيمون فيلسوف ومفكر اشتراكى فرنسى بنى تصوره للسلام العالمى وللفكرة الإنسانية الكونية على أسس التقدم العلمى والصناعي، وتطبيق المبادىء العلمية، ووضع تصورات حول مشروعات تربط أجزاء العالم بشبكات اتصالية قوامها خطوط السكك الحديدية والقنوات المائية. ومن هنا كان أحد الدعاة المتحمسين لحفر قناة تربط بين البحرين الأبيض والأحمر فى مصر (قناة السويس لاحقا). كان "سيمون" يعتقد أن أمر تحقيق السلام الدائم بين البشر ميسورا إذا اتصلت الثقافات وتقاربت، وحققت المجتمعات البشرية تطورها على أسس العلم والأخلاق والدين، لتشكل فى مجموعها مجتمعا صناعيا عالميا دعا لتأسيسه.

تلك الأفكار التى طرحها "الطهطاوي" فى كتابه "مناهج الألباب" وذكرنا أمثلة منها، تمثل المقولات الأساسية فى نظريات سان سيمون الاشتراكية، بما فى ذلك تقسيمه للعمّال بين منتجين وغير منتجين، فالعمل المنتج - عند الطهطاوى كما هو عند سان سيمون - هو العمل الذى يؤدى إلى زيادة قيمة المنتج عن قيمته قبل إضافة قيمة العمل إليه. العمل بذلك هو القيمة المضافة إلى رأس المال ويتحقق من خلاله الربح كما تتحقق به القيمة.

ورغم أن "الطهطاوي" لا يذكر اسم الفيلسوف الفرنسى ولا يشير إليه فى كتابه مرة واحدة، لكنه يذهب إلى تأصيل أفكاره الاشتراكية من تراث القرآن والحديث النبوي، فيدافع عن حق العامل ضد طغيان المالك ونظام الملكية بقوله: "ثم إنّ المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتنى لفوائد هذه الإصلاحات الفلاحية، الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية، والمحتكر لمحصولاتها الإيرادية، إنما هو طائفة الملاك، فهم من دون أهل الحرفة الزراعية هم متمتعون بأعظم مزية، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية، والمتحصلون على فوائدها، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع، فلا يعطون للأهالى إلّا بقدر الخدمة والعمل، وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة، يعنى أنّ الملّاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل، ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم إلّا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل".

بواكير الاشتراكية المصرية

هذه المقارنة الكاشفة عن تأثر الطهطاوى بالمفكر الاشتراكى الفرنسى لا تجرى على خلفية التأثر الفكرى النظرى المحض، لكنها تجرى على أرضية التأثر الواقعى التاريخى كذلك. إذ أنه بدء من ثلاثينات القرن التاسع عشر كان للسان السيمونيين (أتباع الفيلسوف الفرنسي) وجودهم المباشر وتأثيرهم القوى على النخبة المصرية، منذ فرارهم إلى مصر بعد فشل الثورة الفرنسية التى نشبت سنة ١٨٣٠م مستهدفة العودة إلى مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى، ومن قبلها عن طريق صلاتهم بأعضاء البعثات التى أرسلها "محمد على باشا" تباعا إلى فرنسا.

لم يكن عمل السان سيمونيين فى مصر مجرد عمل تعليمى تدريسي، بل امتد إلى تكليف محمد على لهم بمهام تنفيذية فى مشروعاته العسكرية الفنية والهندسية الإنشائية والتصنيعية الانتاجية. وكان عملهم يجرى فى نطاق مشروعهم الثقافى الذى حرصوا على تعريف المصريين به وعلى تبنيهم لتعاليمه.

جرى ذلك فى ظل نهضة محمد على التحديثية بشكل سلس وتلقائي، لكنه توقف من بعد رحيله، ثم رحيل السان سيمونيين عن مصر سنة ١٨٥٠م بسبب انتشار الوباء، ومع بدء حقبة رجعية بدأت مع ارتقاء حفيد الباشا "عباس الأول" (١٨١٣ - ١٨٥٤م) سدة الحكم، وتحت حكمه توقفت حركة التقدم والنهضة، وتعطلت المشاريع الكبرى لمحمد على كل الأصعدة. ثم نُفى "الطهطاوي" بسبب ميوله التقدمية إلى السودان.

لم يبق أمام تلاميذ السان سيمونيين فى مصر - فيما يبدو - إلا التفكير فى عمل يتمكنون به من مواجهة رجعية "عباس الأول". ومن المؤسف ألا تحتفظ لنا مصادر التاريخ المصرى التى تعود لتلك الفترة بمعلومات عن تلك الواقعة لو كانت قد حدثت كما يرجح، لكن مصادر السان سيمونيين الذين أبقوا على اتصالاتهم بمصر تشير إليها، وتذكر أطرافا من سيرة أبطالها من الضباط والعلماء المستنيرين

مصريون وسان سيمونيون

محمد بيومي، محمد مظهر، مصطفى بهجت. ثلاثة أسماء تحتفظ بمكانة هامة فى طلائع الاشتراكيين المصريين. وثلاثتهم من أعضاء البعثات المصرية التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، ودرسوا لخمس سنوات فى المدرسة الهندسية بباريس على يد الفيلسوف الاجتماعى أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) أشهر تلاميذ الفيلسوف الاشتراكى "سان سيمون". بالإضافة لذلك دأب بعضهم على الحضور - بأزيائهم العسكرية - المحاضرات التى كان يلقيها أتباع سان سيمون بشارع "مونسيني" فى باريس دعاية لمذهبهم.

وجد السيمونيون فى هؤلاء الضباط الثلاثة تلامذة لهم، ورفاق فكر يشتركون معهم فى طموحاتهم التقدمية. وفى مصر كانوا شركاءهم الصادقين فى إقناع محمد على باشا بإنجاز خطط السيمونيين الصناعية الكبرى، كما كانوا شركاءهم فى تنفيذ مشروعات محمد على التحديثية، خاصة تأسيس وتشغيل المدرسة الهندسية بالقاهرة. يذكر السيمونى بروسبير أنفانتان فى مذكراته أن محمد مظهر كان دائم السؤال عن دور الفلسفة الوضعية الخاصة بسان سيمون فى صياغة عالم جديد قائم على المنفعة المشتركة والمشاريع الصناعية وإحلال السلام الدائم فى العالم.

عندما زار مظهر انجلترا سنة ١٨٤٣ فى بعثة لشراء الآلات قدمه "أوجست كونت" إلى صديقه الفيلسوف الإنجليزى "جون ستيوارت ميل" بالقول: "إنه موظف سامى فى مصر مكلف بإدارة الأشغال العامة، وقد درسته لمدة خمس سنوات فى المدرسة الهندسية بباريس لما كان طالبا فى البعثات التعليمية المصرية، وكان من أنجب الطلبة وأكثرهم شغفا بالتعلم".

وفى مذكراته يمتدح المهندس السيمونى ميشيل برينو كفاءة المهندس مصطفى بهجت وشغفه بالمعرفة والإطلاع والتعلم. كان بهجت من أقرب الضباط الثلاثة للسيمونيين خاصة بعد زواجه من فرنسية فى باريس، وإقامة علاقات صداقة قوية مع بعض منهم كانوا يلتقون فى بيته بالقاهرة ومزرعته بالجيزة ويتبادلون الحديث فى مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية المصرية والعالمية. فيما بعد - وعلى عهد الخديوى سعيد الذى خلف عباس - سيكون مصطفى بهجت مع محمد مظهر هما بطلا إتمام مشروع القناطر الخيرية التى كانت فى تلك الآونة المشروع الهندسى الأضخم فى العالم.

أما محمد بيومى فقد عين مديرا للمدرسة الهندسية خلفا لمديرها السان سيمونى شارل لومبار الذى كان تلميذا وصديقا له، بالإضافة إلى اضطلاعه بالترجمة فى مدرسة الألسن التى أسسها رفاعة الطهطاوى بعد أن ترأس برتبة البكباشى قلم ترجمة الكتب العلمية والرياضية. يذكر لومبار أنه طالما تناقش مع محمد بيومى فى الفلسفة الوضعية ودور الأفكار السان سيمونية فى الانتقال بمصر من مرحلة المجتمع الإقطاعى إلى مرحلة المجتمع الصناعي.، وقد نُفى بيومى مع الطهطاوى إلى السودان حيث كلفهما الخديوى عباس الأول بالعمل فى مدرسة ابتدائية بالخرطوم، وفى حين صمد الطهطاوى لتجربة النفى القاسية لم يتحملها بيومى ومات قهرا فى منفاه.

ويشير كتاب ألّفه أحد السيمونيين بعنوان "محمد بيومى فى المنفى" إلى أن نفيه وتكليفه بوظيفة مدرس رياضيات فى المدرسة الابتدائية التى كلف الطهطاوى بإدارتها، وهو كبير علماء الرياضيات فى مصر، لم تكن غير عقوبة بسبب اشتراكه فى مجموعة سياسية سرية معارضة للحكم الاستبدادى الرجعى لعباس الأول. ويشير المصدر الفرنسى إلى أن هذه المجموعة شُكلت بإيعاز من إبراهيم أدهم باشا الذى كان وزيرا للمعارف وتوطدت علاقته بالسيمونيين فى زمن حكم محمد علي، وكانت أول لقاءاته معهم فى بيت الكولونيل "دون ساف" أو الكولونيل سيف، سليمان باشا الفرنساوى (١٧٨٨ - ١٨٦٠م) الذى كلفه محمد على بتأسيس وقيادة الجيش المصري.

وعن علاقة إبراهيم أدهم باشا بالسيمونية يقول رحالة فرنسى زار مصر سنة ١٨٤٤م: "أحسست أنه متعاطف مع السيمونيين ومتأثر بأفكار سان سيمون وفورييه، وكان يتابع بشغف وحب اطلاع كبيرين النقاشات حول المشاريع الصناعية الكبرى وفلسفة سان سيمون الاجتماعية:. وهو ما تثبته مراسلات أدهم نفسه لبعض السيمونيين. كما يؤكده لومبار بقوله: "كان يبحث فى كل تفاصيل مذهبنا، وكان يحاول جاهدا التعرف على مقولاتنا ومناقشة أفكارنا، وخاصة المتعلق منها بالجانب الصناعى والمشاريع الحديثة الكبرى".

رغم صمت المصادر المصرية التام بإزاء ما تداولته كتابات السيمونيين عن "تحرك" من قبل الضباط المصريين للتصدى لرجعية عباس الأول، إلا أن المؤكد هو أن نفى الطهطاوى وبيومى ومعهما عدد من أكابر علماء مصر فى ذلك الزمان لم يكن لسبب آخر سوى ميولهم الفكرية والسياسية التقدمية المناوئة لرجعية عباس.

«محمد بيومي» تم نفيه وتكليفه بوظيفة مدرس ابتدائية فى السودان وهو كبير علماء الرياضيات فى مصر

محمد مظهر قدمه «أوجست كونت» إلى «جون ستيوارت ميل» بالقول: «إنه كان من أنجب طلبتى وأكثرهم شغفا بالتعلم»

تمثال لسليمان باشا الفرنساوي

مصطفى بهجت باشا

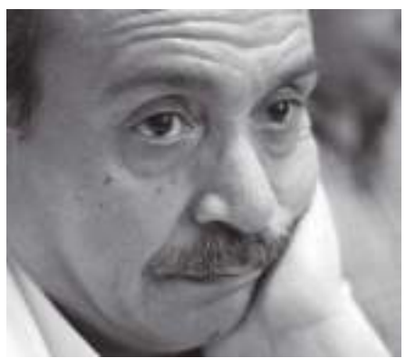

بقلم: عصام الزهيرى

عاصفة بوح

لنحترم إنسانيته

وفاء الشيشيني

هل يشك أحد فى عظمة علم الشيخ الشعراوى .. هل يشك أحد فى صدقه وقربه من الله وهمته فى أن تصل الأمة إلى بر الأمان عبر فهم دينها بأبسط الطرق وأصدقها. هل يشك أحد فى قدرته على الوصول بعلمه الغزير إلى قلوب محبيه ومريديه بحيث أصبح بالنسبة للكثيرين جسر تواصل مهيب بين العباد ونصوص كلام الله سبحانه ، يفهمونها ويستوعبونها ويرضون بها ، عن اقتناع بأوامره ويستغنون راضين عن نواهيه ، لا أتصور.

عشنا أعواما كثيرة وهو العالم الفهامة البسيط الضحوك الذى أعطاه الله قبولا جماهيريا ، ربما عز على كثيرين فى نفس مستوى علمه ولكن تنقصهم الكيمياء الربانية التى منحته قبولا ورضا فى قلوب الناس.. لذلك احتل وحده دون غيره من سائر العلماء ولسنوات موقعه المتميز فى الإعلام ، ينتظره علية القوم وأبسطهم يجلسون مفتوحى الأفواه من عظمة ما يسمعونه من هذا الشيخ البسيط.

ولكن رغم كل ما سبق ، هل شيخنا الجليل إنسان أم نبى موحى إليه من السماء؟ إنسان أم مقدس؟ إنسان يخطىء ويصيب ، يعلم ويجهل فى حدود قدراته العقلية الإنسانية ، فى حدود البيئة التى تربى فيها؟ ، فى حدود العصر الذى ولد فيه ، فى حدود الحرية الفكرية التى توافرت له أم لم تتوافر ، فى حدود الضغوط السياسية التى حوطته ، فى حدود قدرة الإنسان الذى يرى نفسه متميزا بحب عن الجميع.

لجماهيريته الطاغية وعلمه الغزير الذى رأى أنه الاصوب إذا ما اختلفت نظرة العلماء الآخرين ، سطوة على القلوب والعقول قد تلعب فى مناطق إنسانية لا ينجح فيها الكثيرون. وهيبة لم يكن له اليد فيها من مريديه بحيث أن الاقتراب من آراء أو فتاوى أو تفسيرات فقهية قد تعرض قائلها إلى الاغتيال المعنوى أو أكثر إن تجرأ أو أفصح عنها وعارضها!!.

لم يكن ذلك ذنب شيخنا الجليل ، لأنه لم يعلن مطلقا أنه متميز عند الله ، أو أنه يتلقى إلهاما من السماء أو أن علمه أغرز من الآخرين أو طالب الناس بذلك.. ولكن للأسف هم وضعوه فى مكانة مقدسة لا يجب أبدا أن ينالها إنسان مهما بلغ من علم وتقوى ونية صافية ورغبة فى رضا الله على المستوى الشخصى أو العام ومع ذلك حدث ، حتى أن علماء كبار فى مجاله كانوا يخشون أن يعارضوا تفسيراته خوفا من رد فعل الناس ، وذلك أتصور كانت إحدى الجرائم التى ارتكبت فى حق شيخنا العلامة .. مرة أخرى لم يكن خطؤه ، كان خطأ العقلية المصرية التى تمجد كل متميز بحيث تضفى عليه صفات غير إنسانية ، بحيث تجعل الاقتراب منه محفوفا بالمخاطر وتحرمه من فرصة الاستماع للمختلفين معه ، أو مراجعة بعض أفكاره إذا ما نُبِّه إليها من زملاء على نفس القدر من العلم و المسؤولية الدينية!!

لا يوجد إنسان فوق المراجعة والمحاسبة مهما بلغ قدر علمه ، ولكن محبة الناس واقتناعها بأفكاره أوصلته إلى تلك المكانة التى قد تغرى أى إنسان أن يتصور ألا أحد يضاهيه أو له الحق فى معارضة أفكاره ، ونسوا أن اختلاف الفقهاء رحمة وأن الرسول الكريم ذاته قد روجع فى أمور كثيرة رغم أنه كان موحى إليه من السماء ، وكان الناس يناقشونه ويتساءلون عما يقلقهم ، وأن الله سبحانه ذاته قد عاتبه فى "عبس وتولى" ، فكيف نضع عالم دين متميزا فوق كل ما سبق؟

أعترف أنا كاتبة المقال أنى لم أقتنع كثيرا بآرائه فيما يخص المرأة والميسيحيين ، ووجوب قتل الممتنع عن الصلاة والأخيرة خطيرة جدا لأنها تناقض مبدأ إلهيا (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وبعض التصرفات السياسية التى أوجعتنى منه ، ولكن فى السنتين الماضيتين ، صالحنى الفيس بوك بفيديوهاته على سيدنا الشيخ بعيدا عن كل ما سبق ، فهمت منه أشياء دخلت قلبى وفتحت لى طريق الصبر على مصيبة أصابتنى ، لا ينقص من قدر الشيخ لو اقتنعت ببعض آرائه وتفسيراته ولم أقتنع بالبعض الآخر .. فذلك لا يكفرنى ولا ينزل من قدر الشيخ قلامة ظفر.

ببساطة لأنه إنسان وليس رسولا ولا موحى إليه من السماء .. فلنقيمه على هذا الأساس ، فالمجتهد له أجران إذا أصاب وأجر إن أخطأ بحسن نية .. رحم الله شيخنا الجليل.